

المعروف المنكر والمنكر المعروف

بسم الله الرحمن الرحيم

عند غيبة الدين قد يرى أكثر المنتسبين إلى الإسلام - فضلاً عن غيرهم - ما هو معروف في شرع الله منكراً، وما هو منكر في شرع الله معروفاً، والبديعة سنة والمسنة تشدداً وتنطعاً وتنظيراً.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ومتبعي سنته: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرياء» [رواه مسلم]، والغرياء هنا: هم الذين يبقون على منهاج النبوة اليقيني في الدين والدعوة إليه إذا تحول عنه أكثر أهله إلى مناهج البشر الظنية، وتحولوا عن جماعة المسلمين الواحدة إلى الجماعات والأحزاب الدينية المتعددة (كل حزب بما لديهم فرحون) [الروم: 32]، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شياً فإلست من هم في شيء! [الأنعام: 159]، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أكبر سبب يوصل المسلمين إلى هذا الدرک: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً؛ فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» [متفق عليه].

ومع وجود القلة من علماء الشريعة على منهاج النبوة اليقيني اليوم، والكثرة من طلاب العلم الشرعي الوظيفي على منهاج الفكر الظني - الموصوف زوراً بالإسلامي - فإن الشيطان والنفوس الأمارة بالسوء يستعجلان الوصول إلى حال الغيبة في الدين بصرف أكثر المنتسبين إلى الإسلام عن علماء الشريعة الربانيين إلى المفكرين - الموصوفين زوراً بالإسلاميين - والكتابات والصحفيين، والممثلين والمهرجين، والمقاصص من الدواعظين.

وكما يوضع السُّكْر على حبة الدواء المر، توضع المحسّات اللفظية والمزيناات الضنية على الفكر؛ ليظنه الجاهل وحياً من وحي الله، وشرعاً من شرعه، وفقهاً في دينه.

وإذا كان من أقرب الأمثلة صلة بالدين: انصراف المقصاصين والحركيين والحزبيين من دعاة العصر عن نشر توحيد الله بإفراده بالعبادة والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتحذير من إشراك الأولياء مع الله في دعائه وسائر عبادته، ومن الابتداع في الدين - منهاج كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكل رسالاته - فإن من أقرب الأمثلة صلة بالدنيا ما تنفثه أبقواق التقليد اللفظي والعلمي للمغضوب عليهم والضالين والملحدين من الترغيب في عمل المرأة خارج بيتها - حتى لا يتعطل نصف المجتمع! - والترهيب من عمل الأطفال - حتى لا تسرق منهم الطفولة! - زعموا!

وليتبين وجه الحق لنا بد من رد الأمر إلى نصوص الوحي إذا وجدت، أو إلى العقل الأصيل الذي لم يحرفه التقليد المبيغاثي عن فطرته: أ - لقد أمر الله تعالى نساء نبيه صلى الله عليه وسلم - قدوة المسلمات في كل مكان وزمان - في آية محكمة بالقرار في البيوت: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ) [الأحزاب: 33]، وحكم بأن مسؤولية كسب المعيشة على الرجل: (الرجل قال قوامون على النساء بما فضل الله بعرضه على بعضهن وبما أنفقوا من أموالهم) [النساء: 34].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنساء المؤمنات: «صلاتكن في دوركن أفضل من صلاتكن في مسجد الجماعة» [رواه ابن خزيمة - صحيح الترغيب]؛ فكيف بما دون الصلاة من لهو، أو من عمل لم يضطرها الله إليها؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجال والنساء من أمته: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيتها وهي مسؤولة عن رعيته» [متفق عليه].

ومن هذا الوحي اليقيني من كتاب الله وسنة رسوله يتبين لمن تدبره، أن الله تعالى قسم العلم المعيشي بين الرجل والمرأة: عليه تحمل مؤونة أهله بكسب المعيشة خارج البيت، وعليها تهيئة أسباب المعيشة داخل البيت، وتحقيق فطرة الله لها وقدره عليها يوم خلقها: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْنَاهُ عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَعَنْ أَمْرٍ مَّا يُدْرِكُهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا عَمَلٌ بَالِغٌ فِي السُّعْيِ) [الأعراف: 189] زوجها، وتربية أطفالها حتى يؤهلهم الله لتحمل تكاليف الحياة داخل البيت أو خارجه حسب الاختيار الحكيم الثابت لخالقهم، وليس تبعاً لأهواء البشر المتقلبة المقاصرة.

ولقد يسر الله كلاً من الرجل والمرأة لما خلق له [متفق عليه]، وميزه بصفات عقلية وجسمية وعاطفية مختلفة تناسب وظيفته في الحياة، بعد الوظيفة العظيمة المشتركة بينهما وهي: عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه من عبادات مبروضة أو مسنونة: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات: 56]، وإنما يظن الخراصون بأن انصراف المرأة لشؤون بيتها وزوجها وأولادها تعطيل أو سجن لها؛ لجهل أو رفض لاختيار الله وفطرته وشرعه وأمره لها.

ومع انتشار البطالة ونقص الوظائف والمهن اليوم عن عدد المؤهلين للعمل من الرجال في مختلف أنحاء العالم؛ فإن الدعوة لعمل المرأة خارج بيتها تزيد في استفحال المشكلة الاقتصادية، وتُنقل مسؤولية المرأة عن الإدارة والربحية والتربية البيئية إلى الخدمات والمربيات المستقدمات من بيئات غريبة جاهلة، وكما أنه: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْمُنْثَى} {آل عمران: 36}؛ فلن تكون الأجيال كالأبوين والمزوجة.

ويمكر إبليس وتمكر النفس الأمارة بالسوء - أعادنا الله منهما - فيسوّان لمسلمي العصر - باسم الإسلام - مخالفة فطرة الله للمرأة وشرعه لها بإخراجها من أمن بيتها وجربها إلى فتنة السوق بإنشاء المصارف والأسواق والملاهي النسائية، بل والمساجد النسائية المستقلة أو الملحقة بالمساجد العامة.

وهي دعوة عملية لتترك المرأة ستر بيتها للأغراض الدنيوية، أو الدينية التي لم تفرض ولم تُستحب لها.

لقد أباح الشرع للمرأة الصلاة في مسجد الجماعة (رخصة لا عزيمة، وخلافاً للأولى الذي رغبها النبي صلى الله عليه وسلم فيه وهو صلاتها في دارها) خلف الرجال، دون عزلها عنهم كما يفعل المنتفعون اليوم.

ب - أهم ما يتعلمه الطفل - بعد دينه - تحمل مسؤولية نفسه وغيره، بقدر تكليفه واستطاعته، والمدرسة اليوم غير مؤهلة لتعليمه ذلك بل هي - في الواقع - تعلمه الاعتماد على غيره في العلم والعمل.

فإذا هيا الله له الابتاع في سن مبكرة؛ فلا يجوز لنا رده إلى عادة الاستهلاك، وإذا هيا له قدر الله عليه حث خطاه إلى مرحلة الرجولة المقبلة والاعتماد على نفسه - بعد الله - وإعانة أهله المحتاجين إلى عونهم؛ فلا يليق بنا رده إلى مرحلة الطفولة ومدّها تعسفاً حتى ينهي دراسته، ليظل عالة على غيره، ويعيش في سنوات نموه حياة المكسل والبطالة المقنعة بين التلهي بالمهاutz والجريفة والإذاعة والألعاب الآلية، وبين المآكل الناعمة قليلة التغذية من مطاعم الموجبات السريعة.

وفرحة الطفل بعمله وإنجازته أكثر من فرحته بلعبه، وعلى من يهتم بالطفولة أن يحرص على تعليمه القراءة والكتابة والأرقام بعد نهاية عمله اليومي في كسب معاشه، وذلك خير للطفل وللأمة من ضياع سني عمره الأولى في التظاهر بالإعداد لمستقبل لا يعلم إلا الله حدود وقته ونوعه - فالموت هو المستقبل الوحيد المؤكد لابن آدم الطفل أو الشيخ -، وجبر النقص وتقويم الماعوجاج خير من التقليد الشكلي بتركيز الماهتمام على من يوصفون حقيقة أو خيالاً بالموهوبين كمثل أهدونة المراعي الأحمق الذي قيل إنه يطلق سمان الغنم في المرعى ويحبس عذافها بحجة التمشي مع قدر الله لها.

والطفل الضعيف - لأي سبب - هو الجدير بالاهتمام الخاص حيث تشتد حاجته إليه، أما الموهوب - إذا كان متميزاً حقاً - فهو أقدر على الاهتمام بنفسه.

ولقد تبين لي من دراستي النظرية وممارستي العملية - في حقلي الشريعة الميقينية والتربية المظنية - أكثر من نصف قرن - في الداخل والخارج - ما يلي:

1- أن من خير ما يُفترض أن تُدرَّب المدرسة الطفل عليه: تحمل تكاليف الشريعة والحياة، وحسن معاملة خلق الله من الناس والدواب والمأنعام والجماد.

ولكن الواقع يؤكد أن نصيبها من النجاح في تأدية هذه الأغراض العظيمة ضئيل جداً.

2- وأن من خير ما يفترض أن تُعلِّم المدرسة الطفل: حب العلم والرغبة في تحصيله داخل التنظيم التعليمي وخارجه، أو كما يقول المثل الخيالي: (من المهدي إلى الملحد).. ولكن نصيبها من النجاح في تحقيق هذا الغرض لا يزيد عن سابقه.

3- بل الحقيقة أن نظم الدراسة المستوردة، ومنها طريقة التعليم ذات الاتجاه المحدد الواحد - من فم المعلم إلى أذن الطالب، والسباق الظالم غير المتكافئ - تعلم الطالب - دون قصد - كراهية المدرسة والمضجر من الدراسة، والتطلع إلى توقف التعليم بانتهاء الحصّة والميوم الدراسي، أو بحلول العطلة المدرسية، أو بالتخرج من المدرسة، أو بترك الدراسة.

4- أشهر العلماء المبدعين في التاريخ لم يصلوا إلى الإنجاز والشهرة بسبب المدرسة، بل بالرغم منها، وكثير منهم تركها - في إحدى مراحل الدراسة - لمن يستعصون بالشهادات والألقاب الدراسية عن العلم، كما قد يستعصم العسكري عن المشجاعة بالأوسمة والنياشين - في رأي ساحر (الأز) الخيالي عن الحال في أمريكا، وهي قدوة الأغلبية ولو لعنوها.

5- مهمة المسلم في الحياة أعظم من كل اختراع صناعي، ومن كل إبداع جمالي، ومن كل هدف فني؛ الملتزم بشرع الله على مناهج النبوة علماً وعملاً ودعوة لإخراج نفسه وغيره من الظلمات إلى النور، قال الله عز وجل: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: 33]، والمدارس العامة والخاصة لا تؤهله لذلك.

6- أما الدنيا : فالمكافر أسبق إليها دائماً وهو أولى بها بل الأصل فيها، قال الله تعالى: (وَلَوْلَا أَنْ يَكْفُرَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرِّحْمَانِ لِبَيْئَاتِهِمْ سُقُوتًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلِيَّةٍ يَأْخُذُونَ* وَلِبِئَاتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلِيَّةً يَتَّكِفُونَ* وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُنَّا لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) [المزخرف: 33-35].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" [رواه مسلم].

7- ومن يسير في الأرض فينظر ويتفكر؛ يجد أن كل المنجزات القديمة المادية وثنية الأصل من إنتاج: المهندوس والأنباط والمزارعة والميونانيين والرومانيين والإنكار وغيرهم.. والمنجزات الحديثة المادية: تغير المسلمين. وسيظل المسلمون - ما تمسكوا بدينهم - هم الأقل في متاع الدنيا وعلومها؛ فلم يلتفت الأوائل إلى علوم الدنيا اليونانية، ولم يلتفتوا إلى ترف الملابس والمسكن والمركب في العراق وفارس والشام ومصر وإسبانيا، إلا بعد ضعف تمسكهم بالدين والدعوة إليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) [متفق عليه].
وصلى الله وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومتبعي سنته إلى يوم الدين.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصين عفا الله عنه تعاوناً على البر والتقوى وتحذيراً من الماثم والمعدوان □